الفصل السابع

الوقف ومنشآت المرافق العامة

تعد المرافق العامة من العناصر المهمة في المدينة ؛ فإلى جانب المكونات العمرانية التي تتمثل في المباني والمنشآت ذات الوظائف المحددة، توجد المرافق العامة التي تمثل الخدمات الخاصة بالمدينة، والتي تساهم في نجاح بقية عناصر المدينة من مبان دينية، وسكنية، وتعليمية، وثقافية، وطبية، واجتماعية، واقتصادية، وصناعية، وغيرها.

هذا وقد لعب الوقف في ازدهار عمران المرافق العامة نفس الدور الذي لعبه في عمران المنشآت الوظيفية في المدينة الإسلامية، وقد سبق توضيح أبعاده في الفصول السابقة من هذا الكتاب، من حيث كثرة العمران، وتنوعه، وشموله، ودوامه من خلال ما كان يصرف على المباني والمنشآت من ريع الأوقاف التي كان ينص عليها الواقفون في وثائق أوقافهم.

وتأتي المنشآت المائية في مقدمة المرافق العامة التي ارتبط وجودها في المدينة الإسلامية بالوقف، كما كانت هناك الطرق والترع والسكك الحديدية، بجانب الحمامات والمطاهر، والمدافن الخاصة.

(٧,١) المرافق المائية

كان أول وقف مائي في المدينة المنورة هو بئر رومة، وقد وردت في قصة وقفه روايات عدة ؛ ففي إحداها ما ذكر أن عثمان بن عفان ﷺ قام بشراء بئر رومة، وكانت

البئر ملكاً ليهودي يبيع ماءها للمسلمين، فرغّب رسول الله ﷺ المسلمين في شرائها وقال لهم: من حفر رومة فله الجنة"[١]. وفي رواية للبغوي[٢]: كانت لرجل من بني غفار عين يقال لها "رومة" وكان يبيع منه القربة بمد، فقال له النبي ﷺ: "تبيعنيها بعين في الجنة" فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها. فبلغ ذلك عثمان ﷺ فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي ما جعلت له، قال نعم. قال: قد جعلتها للمسلمين[٣]. كما روي أن عثمان بن عفان ﷺ اشتراها منه على دفعتين الأولى بخمسة وثلاثين ألف درهم واتفق مع صاحب البئر على أن يكون له يوم ولصاحب البئر يوم، فإذا كان يوم عثمان استسقى المسلمون يومين، ثم اشترى الدفعة الثانية بثمانية آلاف دراهم وجعلها كلها وقفاً على المسلمين[٤]. كما روي في رواية أخرى أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال: من يشتري بئر رومة فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟ فاشتراها عثمان بن عفان ﷺ، وكان دلوه فيها كدلاء المسلمين[٥].

ومنذ ذلك الحين أصبح تسبيل الماء العذب وتسهيل الحصول عليه من أهم الوجوه التي اهتم بها الواقفون، وانتشرت السقايات والأسبلة التي كان الغرض من إقامتها وتشييدها توفير مياه الشرب للمحتاجين في أماكن محددة داخل المدن، وقد اهتم السلاطين والموسرون بهذا الجانب، سواء للناس أو الحيوانات[٦].

---

(١) من حديث رواه البخاري برقم ٢٧٧٨.

(٢) محمد بن أحمد الصالح، *الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع*، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٣) البخاري ٥/٤٠٦ حديث رقم ٢٧٧٨، والدارقطني ٤/١٩٩ حديث رقم ١١، والبيهقي ٦/١٦٧.

(٤) السيد أحمد ياسين أحمد الخياري، *تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً*، مرجع سابق، ص ص ١٨٣-١٨٤.

(٥) زكي الدين شعبان، و أحمد الغندور، *أحكام الوصية والميراث والوقف في الشريعة الإسلامية*، مرجع سابق، ص ٤٦٩.

(٦) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٤٨.

والواقع أن المسلمين خلال العصور الوسطى كانوا يعدون السبيل أعظم ما يثاب عليه المرء من أعمال البر. وإذا كان أحد المؤرخين الفرنسيين قد أحسن القول حين ذكر أن أمجاد أي شعب لا تقاس إلا بما يبذله في سبيل الحفاظ على الماء وحسن توزيعه، فقد سبقه وبزه في حكمته الحديث الشريف المنقوش على أحد أسبلة القاهرة، والذي رد الرسول ﷺ فيه حين سئل عن خير عمل من أعمال البر فأجاب: "سقاية الناس"(٧).

(٧,١,١) الآبار

كان حفر الآبار وإنشاء القناطر وشق الترع من الأمور التي أولاها الواقفون العناية في أوقافهم على امتداد التاريخ الإسلامي الطويل وعبر البلاد الإسلامية الواسعة، وبشكل خاص في مكة، والمدينة، والطرق المؤدية إليهما، لتسهيل خدمة الحجيج، وكذا المدن الزراعية مثل القاهرة، ودمشق، وبغداد، والبصرة. فقد كان بالمدينة المنورة عدة آبار يستقى منها، ومن بينها بئر بضاعة وبئر حاء، وقد تصدق ببئر حاء أبو طلحة الأنصاري ﷺ، ومنها بئر السقيا، وبئر الأعواف، وبئر أنس، وبئر جاسوم، وبئر الأغرس، وغيرها(٨). كما اشتهر عمرو بن العاص أثناء ولايته على مصر، بحرصه الشديد على إصلاح القنوات المائية في مصر، وكانوا لا يدعون ذلك صيفاً ولا شتاءً، وحفر أبو موسى الأشعري ﷺ آباراً على طريق الحج للقادمين من البصرة، وهي المعروفة حالياً باسم (حفر الباطن). كما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أمر عامله على الكوفة أن يحفر لأهاليها نهراً يسقون منه فقام ﷺ بحفره، وحفر

---

(٧) عماد جعفر ساجواني، *تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدينة*، مرجع سابق، ص٣٩.

(٨) محمد حمزة إسماعيل الحداد، *الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)*، ط١، القاهرة: مكتبة زهراء الشروق، ٢٠٠٤م، ص ١٥.

أنهاراً أخرى في نواحي أخرى. كما كثر حفر الآبار والقنوات في عهد عثمان بن عفان ﷺ في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية سواء بأمر منه أو من أمرائه. ولم يقتصر الأمر على حفر الآبار وشق الترع والقنوات، بل امتد إلى إقامة السدود عند الحاجة أيضاً، كما فعل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ مع وادي مهزور في المدينة، حيث إنه أقام سداً لمنع وصول السيل إلى الحرم النبوي الشريف(٩).

ومن الأمثلة على توفير المياه على الطرق من البلاد المختلفة إلى مكة المكرمة خاصة لتوفير احتياجات الحجيج من المياه الموقوفة، ما كان على الطريق من القاهرة إلى مكة المكرمة، حيث كان أول ما يقابله ركب الحج من الآبار في عقبة "آيلة" بعد مسيرة ستة أيام من القاهرة حيث يستريح الركب بها يومين أو ثلاثة، والموقع الثاني لحط الرحال، وأخذ قسط من الراحة في "عيون القصب" بعد مسيرة خمسة أيام حيث يتوفر بها ماء جار عذب، وبعد مسيرة خمسة أيام أخرى يتوقف الركب في الوجه للتزود منها بمائها العذب الطيب، كما يتوقف ركب الحاج للتزود بالماء في الحوراء بعد مسيرة ثلاثة أيام، وفيها يتلقى أهل ينبع ركب الحاج بالتمر، وتستمر القافلة في السير والتزود بالمياه في المغيرة على مسافة يومين، ثم ينبع على مسافة يومين، ومنها إلى الدهناء مسيرة نصف يوم، وبها ماء طيب ثم تصل القافلة إلى بدر بعد مسيرة يومين، وبها ماء عذب، ومنها إلى رابغ مسيرة ثلاثة أيام ليبدأ الحجاج في الإحرام(١٠).

---

(٩)عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ص ١٤٧-١٤٨.

(١٠)محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، *الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي*، ج٤، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٦م، ص ١٨١.

(٧,١,٢) العيون

اهتم الواقفون أيضاً بإجراء العيون، عن طريق تجميع مجاري السيول والأمطار في قنوات يتم حفرها لتجمع الماء العذب ثم يساق إلى المناطق المختلفة من المدن والقرى، سواء للشرب أو للزراعة ومختلف أغراض الصناعة. وقد كان من أشهر هذه العيون التي أجريت من مال الأوقاف المختلفة عبر مراحل وأزمنة في أرض الحجاز؛ عين زبيدة بمكة المكرمة، وعين عرفات، والعين العزيزية بجدة.

عين زبيدة بمكة المكرمة: لما بلغ السيدة زبيدة (زوج هارون الرشيد) معاناة سكان مكة المكرمة وحجاج بيت الله الحرام من قلة المياه، بعد خراب العيون وانقطاع الماء عن مكة في أواخر دولة بني أمية[١١]، أمرت ببناء بركة بمكة وجلبت لها الماء من داخل حرم مكة، إلا أن الماء كان قليلاً ولم يفي بحاجات السكان، وحينئذ أمرت المهندسين بإجراء مياه عيون الحِل إلى مكة على الرغم من صعوبة الطريق نتيجة لمرتفعات الجبال، وقد قدمت الكثير من الأموال، وأخذت المياه طريقين هما؛ عين حنين، وعين عرفة. فقد اشترت السيدة زبيدة بساتين منطقة حنين وأنشأ لها المهندسون سداً لحجز مياه الأمطار، كما جلبوا لها مياه عيون تلك البساتين وجرت في قناة إلى مكة رغم صعوبة الطريق، وقد بدأت هذه الأعمال سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م، وأكد ذلك الفاكهي بقراءة النص المكتوب على بركة زبيدة بالمعلاة ونصه "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله الله وحده لا شريك له، وصلى الله على محمد عبده ورسوله بركة من الله مما أمرت به أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر ابن أمير المؤمنين المنصور – رضي الله

(١١)عبد القدوس الأنصاري، *تاريخ العين العزيزية وبحث عن مصادر المياه في المملكة العربية السعودية*، جدة: إدارة العين العزيزية، ١٩٦٩م، ص ٣٨.

عن أمير المؤمنين – بإجراء هذه العيون سقاية لحجاج بيت الله وأهل حرمه، طلب ثواب الله وقربة إليه على يدي ياسر خادمها ومولاها سنة ١٩٤هـ"(١٢).

وقد تحدث الفاسي (٧٧٥- ٨٣٢هـ) عن عين زبيدة في كتابه "الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة" حين قال: "وأما العيون التي أجريت بمكة وبظاهرها فكثيرة، وليس منها الآن جار غير العين المعروفة بعين بازان، وهي في غالب الظن عين زبيدة، ولها في عينها نفقة عظيمة، يقال إنها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار"(١٣). كما وصفها اليافعي في القرن الثامن للهجرة فقال: "إن آثارها باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منى من مكة ذات بنيان محكم في الجبال تقصر العبارة عن وصف حسنه وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض عميق ذي درج كثيرة جداً لا يوصل إلى قراره إلا بهبوط كالبير يسمونه لظلمته يفزع بعض الناس إذا نزل فيه وحده نهاراً فضلاً عن الليل"(١٤).

عين عرفات: كان من مآثر السلطان سليمان خان في خدمة الحرم المكي، إجراء العيون، ومن أبرزها كانت عين عرفات إلى مكة المكرمة، وسبب ذلك أن العين التي كانت جارية بمكة هي عين حنين إذا كثر المطر كثرت وزادت، وإذا قل المطر ضعفت؛ بل وربما انقطعت المياه فيها، وكثر اضطراب الحجاج والمناطق المجاورة، وعرض ذلك على السلطان سليمان خان، الذي أمر بإصلاح عين حنين وعين عرفات، وعين لها ناظراً اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة، فبذل جهده في عمارتها وإصلاح قناتها إلى أن جرت عين مكة، وملئت برك عرفة(١٥).

---

(١٢)عادل بن محمد نور غباشي، *أوقاف عين زبيدة في عهد الملك عبد العزيز*، مرجع سابق، ص ص ١٣٤- ١٣٧.

(١٣)تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، تحقيق: مصطفى محمد حسين، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة*، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(١٤)ابتسام سالم، ، *عين زبيدة*، من الموقع التالي: http://www.alfalaq.com/sam/sam14.htm.

(١٥)عبد الكريم بن محب الدين القطبي، *إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام*، مرجع سابق، ص ص ١٠٩-١١٠.

العين العزيزية بجدة: في القرن العاشر الهجري اهتم السلطان قانصوه الغوري بأزمة المياه في جدة فقرر جلب عين لها جارية وأنفق على ذلك مالاً كثيراً، وكانت تسمى بالعين الوزيرية وقد استمر جريان هذه العين حتى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، فانقطعت العين، وتم إصلاحها وأعيدت، ثم انقطعت مرة أخرى في القرن الثالث عشر الهجري. وفي أواخر هذا القرن وبالتحديد في سنة ١٢٧٠هـ نهض أحد تجار جدة وهو فرج يسر، حيث قام بجمع إعانات من تجار جدة وأغنيائها لإصلاح هذه العين وإجرائها من جديد واستمر جريانها قبل أن يعتريها الضعف سنة ١٣٠٢هـ. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني اهتمت الحكومة بإيصال العين الوزيرية التي كان والي جدة قد أجراها، وسميت بالعين الحميدية، وقد نظمت هذه العين تنظيماً شبه حديث، حيث بنيت لها خزانات وبرك، ووزعت مياهها في قنوات من أنابيب على أحياء مدينة جدة توزيعاً حسناً، وقد كان لهذه العين إدارة خاصة تدير شئونها وتنفق عليها وتتعاهد على خرابها بالإصلاح، ولكنها كانت دائمة انقطاع الماء، ورغم الاستعانة بآلات تقطير المياه من قبل الحكومة العثمانية التي بدأت بآلة كانت تسمى الكنداسة، وهي تعمل بالبخار وكان ذلك في سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، إلا أنها تعطلت هي وواحدة أخرى من اثنتين كانتا قد جلبتا سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م. إلا أن عدم كفاية الماء المقطر جعل الناس يفكرون في إعادة جريان العين الوزيرية، وجمعوا لذلك تبرعات خاصة، فقام الملك عبد العزيز آل سعود بإعادة تبرعات الناس وأمر بإجراء العين على نفقته وقفاً لله تعالى سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٧- ١٩٤٨م[١٦].

---

(١٦)عبد القدوس الأنصاري، *تاريخ العين العزيزية ولمحات عن مصادر المياه في المملكة العربية السعودية*، مرجع سابق، ص ص ٤٥- ٥١.

(٧,١,٣) السقايات

ورد في بعض المصادر التاريخية أن عمر بن الخطاب ﷺ قد وضع في طريق السبيل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء، ويضيف ابن سعد في طبقاته فيذكر: "قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب استأذنه أهل الطريق يبنون ما بين مكة والمدينة فأذن لهم وقال: ابن السبيل أحق بالماء والظل"، كما أن هناك إضافات في المصادر التاريخية اللاحقة توضح تفاصيل أكثر أهمية عن ذات الموضوع منها ما رواه الواقدي عن كثير بن عبد الله المزني عن جده أنه كان ممن قدم مع عمر إلى مكة المكرمة للعمرة سنة ١٧هـ/٦٣٨م "فمر – أي عمر ﷺ – بالطريق فكلمه أهل الطريق أن يبتنوا منازل ما بين مكة والمدينة ولم يكن قبل ذلك بناء، فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء". ومن هنا يتضح أنه في عهد الخلفاء الراشدين وبصفة خاصة في عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، لم يقتصر الاهتمام بتوفير المياه على شراء الآبار ووقفها والتصدق بها فحسب، بل إن ذلك شمل إقامة أبنية مخصصة لذلك الغرض وهي التي عرفت بالسقايات، ويستدل على ذلك من خلال ما رواه الإمام الشافعي (المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م) بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه "أنه كان يشرب من سقايات كان يضعها الناس بين مكة والمدينة"[(١٧)].

ومن أهم السقايات في مكة المكرمة في العصر العباسي سقاية العباس بن عبد المطلب ﷺ، وكانت تقع في المسافة بين بئر زمزم – من جهة الشرق – والكعبة، وقد عمّرت في خلافة المهدي العباسي (١٥٨ – ١٦٩هـ/٧٧٥ – ٧٨٦م)، كما حدث لها

---

(١٧) محمد حمزة إسماعيل الحداد، *الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)*، مرجع سابق، ص ص ١٥ – ١٦.

العديد من الإصلاحات والتجديدات والصيانة والتغييرات فيما بعد. وقد وصف الفاسي عمارة هذه السقاية في زمنها بقوله: "صفة هذه السقاية الآن بيت مربع في أعلاه قبة كبيرة ساترة لجميعه، والقبة من آجر معقود بالنورة (أي الملاط أو الجص)، وفي أسفل جدرانها خلا الجنوبي شبابيك من حديد تشرف على المسجد الحرام، في كل جهة شباكان من حديد، وفي جانبها الشمالي من خارجها حوضان من رخام مفردان، وباب السقاية بينهما، وفي هذا البيت بركة كبيرة تملأ من بئر زمزم، يسكب الماء من البئر في خشبة طويلة على صفة الميزاب متصلة بالجدار الشرقي من حجرة زمزم ويجري الماء منها إلى الجدار المشار إليه، ثم إلى قناة تحت الأرض حتى يخرج إلى البركة من فوارة في وسطها، وأحدث وقت عمّرت فيه هذه القبة سنة سبع وثمانمائة (١٤٠٤م)، وسبب عمارتها في هذه السنة أن القبة التي كانت في سقف هذه السقاية أكلت الأرضة (دودة الخشب) بعض الخشب الذي كان فيها فسقطت .."[١٨].

كما شاهد ابن أحمد القيسي أحد السقايات في المدينة المنورة ووصفها بقوله: "وبين المدينة المكرمة على يمين الطريق العين المنسوبة للنبي ﷺ، وعليها بنيان مستدير ومنبع العين في وسطه كأنه الحوض المستطيل وتحته سقايتان مستطيلتان وقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض بحاجز ويهبط إليها على أدراج وهي خمسة وعشرون درجاً ..."، كما يضيف القاسي فيذكر أن بالمدينة أيضاً "... ثلاث سقايات داخل باب الحديد ينزل إليها على أدراج وماؤها معين وهي على مقربة من المسجد الشريف"[١٩].

واستمر الاهتمام بتشييد المنشآت المائية في عصور الدولة الإسلامية فيما بعد، فقد شيد الوزير جعفر بن الفرات عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م، السبع سقايات، لتزويد سكان

---

(١٨) المرجع السابق، ص ص ١٨- ٣٩.

(١٩) المرجع السابق، ص ٢٩.

الفسطاط بالماء اللازم لهم، وخاصة منطقة الحمروات، وذلك عندما انحسر ماء النيل عن تلك المنطقة. وقد جعل لها بئراً يؤخذ منها الماء إلى السقايات السبع، أنشأها وحبسها لجميع المسلمين الذين كانوا بخط الحمراء، وكتب عليها: "بسم الله الرحمن الرحيم، لله الأمر من قبل ومن بعد، وله الشكر وله الحمد، ومنه المن، على عبده جعفر بن الفضل بن الفرات وما وقفه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التي أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسه وسبله وقفاً مؤبداً لا يحل تغييره ولا العدول بشيء من مائه ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا إلى حيث مجراه إلى السقايات المسبلة، فمن بدله من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه .. إن الله سميع عليم وذلك في سنة خمس وخمسين وثلثمائة — وصلى الله على نبيه وآله وسلم"[٢٠].

(٧,١,٤) الأسبلة

كانت أسبلة الماء، وحتى القرون الخمسة الأولى بعد الهجرة، تعرف بالسقايات، ثم اشتهرت باسم الأسبلة منذ أواخر القرن ٥هـ/١١م، ولاسيما في الشام ومصر والجزيرة العربية، أما أقطار الغرب الإسلامي فقد ساد وانتشر فيها مصطلح السقاية، وصار مسمى لذلك النوع من الأبنية والمنشآت الخيرية[٢١].

وقد تطورت عمارة السقايات وصارت تسمى بالأسبلة، وهي وإن كانت تؤدي نفس الغرض من حيث سقاية الناس والدواب، إلا أن مبنى السبيل احتوى على ملحقات أخرى مثل الكتّاب الذي كان يقام بصفة أساسية أعلى مبنى السبيل لتعليم الأطفال من الأيتام خاصة علوم القرآن الكريم.

---

(٢٠)خالد عزب، *فقه العمارة الإسلامية*، القاهرة: دار النشر للجامعات – مصر، ١٩٩٧م، ص ص ٩٠-٩١.

(٢١)محمد حمزة إسماعيل الحداد، *الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)*، مرجع سابق، ص ٩.

وقد حظيت مباني الأسبلة بعناية فائقة من حيث اختيار مواقعها، وعمارتها، ومن حيث حليتها وكسوتها، بجانب الأوقاف الكثيرة المغلة التي أوقفت عليها كي يصرف من ريعها على أوجه الصرف المختلفة لاستمرار منفعتها ودوامها(٢٢).

وقد انتشرت الأسبلة في مدن العالم الإسلامي جميعاً، وكانت عناية أهل البر بماء الشرب في مدينة سمرقند، على سبيل المثال، أعظم مما يتصور، فمن ذلك ما قاله ابن حوقل: "وقلما رأيت خاناً، أو طرف سكة، أو محلة، أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء مجمد مسبّل ... وذكر لي من يرجع إلى خبره أن سمرقند في المدينة، وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفي مكان يسقى فيه ماء المجمد مسبلاً عليه الوقوف من بين سقاية مبنية، وجباب نحاس منصوبة، وقلال خزف في الحيطان مبنية ..."(٢٣).

وقد ظهر السبيل، كمنشأة معمارية متكاملة، على الأرجح في العصر المملوكي، واستمر حتى القرن التاسع الميلادي، ومهما اختلفت طرز الأسبلة وأشكالها، فإن تكوينها المعماري كان واحداً، وهو تكوين يخدم الوظيفة. ويتكون السبيل من ثلاثة طوابق: الطابق الأول في تخوم الأرض وهو الصهريج الذي يملأ بالماء. والطابق الثاني أرضه أعلى من مستوى الشارع بقليل، وهو حجرة السبيل أو حانوت السبيل، ولهذه الحجرة شبابيك للتسبيل وبداخلها أحواض تحت الشبابيك تملأ بالماء العذب من الصهريج. أما الطابق الثالث والأخير فهو في الغالب قاعة لتعليم الأيتام، أي كتّاب، وأحياناً كان يخصص للمزملاتي(٢٤). أمّا علاقة مبنى السبيل بالمباني المحيطة،

---

(٢٢) المرجع السابق، ص ٩.

(٢٣) محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، *الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي*، ج٤، مرجع سابق، ص ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢٤) المزملاتي: هو الشخص الذي كان يعين للسبيل، ويتولى تسبيل الماء على المارة، بجانب تنظيف السبيل وأدواته ويعمل ما يلزم السبيل في جميع شئونه. فقد جاء في وثيقة يشبك بن عبد الله أن المزملاتي "يتولى تسبيل الماء المذكور للمارين عليه كل يوم من الظهر إلى العصر ما عدا شهر رمضان فإنه يسبل كل ليلة من=

فقلما كان يبنى السبيل مفرداً كسبيل السلطان قايتباي بالصليبة، وسبيل خسرو بالنحاسين، وسبيل عبد الرحمن كتخدا بالنحاسين، كما كان يلحق بالمسجد والمدرسة كالأسبلة الملحقة بمدرسة أيتمش البجاسي بباب الوزير، وخانقاة الناصر فرج بن برقوق ومدرسة قاني باي الرماح بميدان القلعة وغيرها. كما كانت الأسبلة تلحق بالمساكن كأمثلة الأسبلة في مباني مدينة رشيد السكنية بمصر كما في منزل رمضان ومحارم، والبقراولي، والميزوني، ومكي، وعصفور، والتوقاتلي(٢٥).

وكانت الأسبلة في بادئ الأمر ملحقة بمبان أخرى مثل المساجد أو المدارس أو خانقاوات الصوفية، ومن أمثلة الأسبلة التي كانت ملحقة بالمساجد السبيلين اللذين أنشأهما وأوقفهما السلطان قايتباي فضلاً عن المزملة التي أنشأها بدهليز الجامع لتيسير حصول أرباب الوظائف وغيرهم من المترددين على ما يحتاجون إليه من الماء العذب، فجاء في وثيقة وقفه "ووقف السبيلين وهما السبيل المرخم الكبير الذي هو بواجهة الجامع الشريف المذكور أعلاه على الطريق الجادة مما يلي باب الجامع الكبير، والسبيل المبلط الصغير الذي من جهة الباب الصغير من بابي الجامع المذكور لتسبيل الماء العذب من ماء النيل المبارك بهما للناس على الدوام"(٢٦).

-المغرب إلى العشاء" (عن: محمد عبد الستار عثمان، *نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة*، ص ص ١٥١-١٥٣). كما وضع الواقفون شروطاً جسمية وصحية وخلقية يلزم توفرها في المزملاتي، فمن الشروط الصحية ما جاء في وثيقة السلطان الغوري "رجل ثقة أمين جميل الهيئة نظيف الثياب، سليم البدن، والجسد من العاهات، ذي قوة وشطارة ونهضة ومروة"، أما الصفات الخلقية "أن يسهل الشرب على الناس، ويعاملهم بالحسنى، والرفق ليكون أبلغ في إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة" (محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص١٥١).

(٢٥)خالد عزب، *فقه العمارة الإسلامية*، مرجع سابق، ص ص ٩١-٩٢.

(٢٦)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص١٥٠.

ثم أصبحت الأسبلة مع مرور الزمن مبان مستقلة منفصلة تبنى لذاتها. وقد حدث هذا التطور بشكل خاص في عصر سلاطين المماليك حينما أصبح للسبيل طراز معماري خاص بصنابيره (حنفيات) المثبتة من وراء مشبكات من البرونز، ويلحق بها في كثير من الأحيان بناء يستخدم كتّاباً لتحفيظ القرآن الكريم(٢٧). بينما يرى رأي آخر أن الصنابير ظهرت في العصر العثماني، وكانت تؤدي غرضين معاً؛ الشرب، والوضوء(٢٨).

وكان الواقف يرصد ميزانية لشراء الماء العذب وأدوات السبيل التي يحتاج إليها المزملاتي في عمله، وكان تخزين الماء سنوياً بالسبيل، ولذلك كان السبيل يحتاج إلى بناء صهريج ضخم أسفل السبيل في تخوم الأرض، يملأ بالماء كل سنة، ويسبل منه طوال العام(٢٩). وتتشابه صهاريج الأسبلة إلى حد كبير، حيث تتكون من مساحة مربعة أو مستطيلة تنقسم إلى أروقة متقاطعة تسقف بالأقبية أحياناً أو بالقباب الضحلة (المقالي) المقامة على مناطق انتقال من المثلثات الكروية، بواقع مثلث بكل ركن من الأركان الأربعة. ومن الأمثلة صهريج سبيل السلطان الأشرف قايتباي بمسجد نمرة عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، وقد وصفه النجم عمر بن فهد بقوله: "وحفرت بالمسجد صهريج عظيم يتوسط المسجد المذكور طوله عشرون ذراعاً من شرقيه إلى غربيه، وسعته خمسة أذرع بالعمل، بداخله بوائك يعلوها ثلاث مقالي وقنطرتان وله منزلان وفم بوسطه

---

(٢٧) عماد جعفر ساجواني، *تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدينة*، مرجع سابق، ص٣٩.

(٢٨) محمد حمزة إسماعيل الحداد، *الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)*، مرجع سابق، ص ص ٢٠-٤١.

(٢٩) محمد عبد الستار عثمان، *نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة*، مرجع سابق، ص١٥٢.

يستقي منه الماء، وارتفاع الصهريج المذكور ستة أذرع بالعمل، وعملت قناة كبيرة آتية من خارج المسجد متصلة بالصهريج المذكور، للقناة المذكورة مصفاة من خارج المسجد يجتمع فيها الماء، ويجري صافياً منها في القناة المذكورة إلى الصهريج المذكور مما يتحصل من ماء السيول"(٣٠).

وحتى يؤدي السبيل والمزملاتي خدماته على أكمل وجه لم يهمل الواقفون أمر الأدوات المستخدمة في السبيل "مثل سلب الليف، أو الكتان والأدلية الجلد، وآنية الشرب، والمكانس الخوص، والطسوت، والأسطال النحاس والأباريق، والقلل الفخار، والسفنج، والفوط للمسح". كما بلغ اهتمام الواقفين بالآلات أن خصصوا أماكن لحفظها من ذلك ما نصت عليه إحدى الوثائق "أما الخوستانان (الخزنتان الخشبيتان) والخلاوي التي بالسبيل المذكور قريباً بأعاليه فإنه أعد ذلك لإحراز أواني السبيل المذكور أعلاه على العادة في ذلك، وأما الرواقان اللذين (كذا) علو السبيل المذكور أعلاه فإنه وقفهما وحقوقهما لينتفع بذلك من يكون مزملاتياً بالسبيل المذكور"(٣١).

وقد اختلفت هيئة السبيل حسب موقعه في الطرق فهناك من كان له شباك واحد للتسبيل وهناك من كان له اثنان أو ثلاثة ووصل إلى أربعة في بعض الأسبلة. فقد تميز سبيل السلطان الأشرف قايتباي بمسجد الخيف بمنى الذي بني عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، بأنه كان يشتمل على أربعة شبابيك للتسبيل، وقد قال عنه الحارثي: "وهذا مثال نادر

---

(٣٠)محمد حمزة إسماعيل الحداد، *الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)*، مرجع سابق، ٢٠٠٤م، ص ٤٥.

(٣١)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص١٥٣.

لم يتكرر في الحجاز أو في مصر في العصر المملوكي"(٣٢). وقد احتل السبيل موقعاً مميزاً من المبنى، ولم يكن موقعه مرتبطاً بالتوجيه المناخي، بل كان مرتبطاً بتوفير خدمة أفضل وخصوصاً حال وقوعه على ناصية شارعين متقاطعين. وقد نظمت بالسبيل نوافذ بسنابل من البرونز بمسطحات تخالف التي ببقية المبنى، وقد ارتبط تعدد النوافذ بتعدد الواجهات المطلة على الطريق(٣٣).

وقد اهتم المعمار المسلم بتشكيل السبيل سواء من الداخل أو الخارج، وقد توجه الاهتمام الأكبر إلى الداخل بالنسبة للحوائط والأسقف والأرضيات مع التنوع في استخدام الألوان والزخارف والحليات ضمن إطار من الوحدة أدت إلى تكوين صورة متكاملة متزنة. فقد زينت الأسقف الخشبية في السبيل بالألوان والزخارف والتذهيب، كما غطيت الحوائط بوزرة من الرخام الملون وغطيت الأرضيات بالرخام الملون في تشكيل هندسي بديع. كما تم تزيين الحوائط بالآيات القرآنية، ففي سبيل فرج بن برقوق بالقاهرة وجد قول الحق تبارك وتعالى: "وسقاهم ربهم" (سورة الإنسان، آية ٢١)(٣٤). كما شاهد الرحالة التركي أوليا جلبي في الربع الأخير من القرن ١١هـ/١٧م سبيل الأغا خارج باب مصر وقد نقش على نافذته الآية الكريمة: "وجعلنا من الماء كل شئ حي" (سورة الأنبياء، آية٣٠)(٣٥).

---

(٣٢)محمد حمزة إسماعيل الحداد، *الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)*، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣٣)مصطفى صالح لمعي، "عمارة السبيل: الشكل والمضمون"، *أبحاث الحلقة الدراسية الرابعة، "المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري"*، جدة: منظمة المدن والعواصم العربية، ١٩٩١م، ص١٣٨.

(٣٤) المرجع السابق، ص ص ١٣٦- ١٣٧.

(٣٥)محمد حمزة إسماعيل الحداد، *الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)*، مرجع سابق، ص ص ٣١- ٣٢.

وعن اهتمام الواقفين بتشييد مباني الأسبلة على هذه الهيئة المعمارية، يقول مصطفى لمعي: "قد يتساءل البعض عن ضرورة إقامة مباني الأسبلة على هذه الصورة المعمارية الرائعة التي احتوت على معان وقيم معمارية على درجة عالية من التنوع والإيقاع والتنغيم والتوازن المعماري وخاصة في عمارة العصر المملوكي الجركسي والعصر العثماني أم أنه كان يكفي عمل حوض للشراب مادام الهدف هو الأصل السقاية لابن السبيل وكل كائن حي؟" ويرى أن تفسير ذلك يرجع إلى: "أن المسلم قد تفهم أن الماء هو عطاء من الله وأنه عبد من عباد الله منفذ لتعاليمه الواردة في الكتاب الكريم ولأحاديث نبيه ورسوله ﷺ ... ولذلك وجد وضعها في غلاف معماري يليق بهذه النعمة الإلهية"(٣٦).

الأسبلة في أرض الحجاز: بجانب ما سبق وأن ذكرنا، أنه جاء في بعض المصادر التاريخية، أن عمر بن الخطاب ﷺ قد وضع في طريق السبيل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء. فقد قال الفاسي في كتابه "الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة" عن السقايات والسبل في مكة: "وأما السقايات – وهي السبل- فهي كثيرة؛ منها بمكة خمسة. ومنها بين مكة ومنى سبعة. وبمنى عدة سبل"(٣٧).

كما كان هناك سبيل السلطان المملوكي المؤيد شيخ بالحرم المكي الشريف الذي شيده عام ٨١٨هـ/١٤١٥م، وهو على غرار الأسبلة المملوكية المصرية. وقد وصف الفاسي هذا السبيل بقوله: "... هذا السبيل بيت مربع فيه ثلاثة شبابيك كبار من حديد فوق كل شباك لوح من خشب بصنعة حسنة: منها واحد إلى جهة الكعبة، واثنان إلى

(٣٦)مصطفى صالح لمعي، *عمارة السبيل: الشكل والمضمون*، مرجع سابق، ص١٣٦.

(٣٧)تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة* تحقيق: مصطفى محمد حسين، مرجع سابق، ص ص ١٢٧-١٢٨.

جهة الصفا، وتحت كل شباك حوض في داخل البيت، وفيه بركة حاملة للماء، وله سقف مدهون يراه من دخل السبيل، وبابه إلى جهة الصفا، وله رفرف خشب من خارجه مدهون، وفوق كل ذلك شراريب – أي شرافات – من حجارة منحوتة، وباطن السبيل منور، وظاهره مرخم بحجارة ملونة، وجاءت عمارته حسنة ..." (٣٨). فقد تميز هذا السبيل بواجهاته التي تتوجها شرافات حجرية منحوتة يوجد أسفلها رفرف خشبي ذو نقوش زخرفية ملونة، كذلك كان بسقف حجرة السبيل سقف خشبي ذو نقوش زخرفية ملونة. كما تميز سبيل السلطان الأشرف قايتباي بمسجد الخيف بمنى الذي بني سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، بأرضية رخامية ذات لون أصفر(٣٩).

ويعد سبيل منى الذي بني سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١- ١٩٢٢م، من الأمثلة المعمارية المتميزة والمتفردة، فقد تميز بهيئة معمارية مستقلة وغير مسبوقة، بجانب كتلة المدخل البارزة، وبناؤه بالحجر المشهر، كما احتوى على مفردات وعناصر معمارية غاية في الجمال؛ كالأحواض، والدخلات المعقودة، والعقود، والدعامات المسدسة وما يعلوها من الأعمدة المدمجة في الأركان، والشرفات التي تتوج واجهة السبيل(٤٠).

الأسبلة في مدينة القاهرة: تركزت الأسبلة في القاهرة في المناطق الآهلة بالسكان والأسواق والأحياء التجارية والصناعية، التي منها على سبيل المثال: شارع المعز لدين الله الفاطمي، والتبانة، والصليبة، والخليج المصري، ومنطقة السيدة زينب. ومن أشهر هذه الأسبلة، في العصر العثماني، سبيل عبد الرحمن كتخدا، (الشكل رقم ٧.١)، وأنشأ فوقه مكتباً لتعليم أطفال المسلمين القرآن الكريم، وقد أنشأه عام ١١٤٦هـ،

---

(٣٨) محمد حمزة إسماعيل الحداد، *الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)*، مرجع سابق، ص ص ٢٠- ٤١.

(٣٩) المرجع السابق، ص ص ٤٢- ٤٣.

(٤٠) المرجع السابق، ص ٤٦.

وكما جاء في نص وثيقة وقفه "أنه جعل عدد الأطفال عشرة، من أيتام المسلمين القصر"[٤١]. ولهذا السبيل أهمية فنية خاصة، فهو يكون مجموعة مستقلة يتمثل فيها الكثير من روائع الفن الإسلامي في العصر العثماني. وكان جملة ما يصرف على السبيل (بالنصف فضة) وفقاً لما جاء في نص وثيقة الوقف مبلغ ٥٠٠٠ على ملء الصهريج، ومبلغ ١٠٨٠ مرتب المزملاتي، ومبلغ ٨٢٥ على أدوات السبيل[٤٢].

الشكل رقم (٧,١). سبيل عبد الرحمن كتخدا بالقاهرة[٤٣].

(٤١) علي باشا مبارك، *الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة*، ج٦، مرج سابق، ص ١٧٧.

(٤٢) محمود حامد الحسيني، *الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧ – ١٧٩٨م*، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ص ١١- ٢٢٠- ٢٢١- ٣٢٥.

(٤٣) محمود حامد الحسيني، *الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧ – ١٧٩٨م*، مرع سابق، ص ٤٩٥.

ومن الأسبلة التي كانت في مدينة القاهرة، أيضاً، سبيل الست شوكار، أنشأته الست شوكار زوجة إبراهيم كتخدا القازدغلي، وفي حجة وقفه المؤرخة سنة ١١٨٥هـ "أن الست شوكار المذكورة وقفت جميع المكان بخط الأزبكية بدرب شيخ الإسلام ... وجميع الجنينة فيما بين بولاق وقصر العيني ... وشرطت لنفسها النظارة ومن بعدها للأولاد والعتقاء ... وأن يصرف في ثمن ماء عذب يصب في السبيل إنشاء الواقفة في كل سنة أربعة آلاف وتسعمائة وخمسون نصفاً فضة"[٤٤].

(٧,١,٥) أحواض شرب الدواب

لم يكن اهتمام الواقفين منصباً على تقديم المياه العذبة إلى الناس فقط، بل وجد هناك نوع آخر من المنشآت المائية شمل الحيوانات أيضاً، قصد به الخيرون توفير ماء لشرب الدواب؛ مما يدل على اتساع أفق النظرة الاجتماعية للحضارة الإسلامية، واتساع مفهوم وغايات الوقف.

وقد تعددت أحواض المياه التي أقيمت في المدن الإسلامية، وخاصة قرب أطرافها وأبوابها لسقي الدواب، وحبست عليها هي الأخرى الأوقاف لتمكينها من تحقيق أهدافها[٤٥]. وكانت هذه الأحواض في بنائها إما أن تلحق بمباني الأسبلة أو تقام بشكل مستقل.

ومن النماذج الشهيرة على وقف أحواض الدواب، ما تذكره وثيقة وقف السلطان قايتباي "ووقف حوض السبيل المذكور أعلاه، بالقرب من الجامع المذكور فيه، وفسقية الحوض المذكور المجاورة له لاستقرار الماء الذي يجري إليها من بير الساقية المذكورة أعلاه المعلقة بذلك، لينتفع به في سقي الدواب المارين على ذلك، والمترددين

---

(٤٤)علي باشا مبارك، *الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة*، ج٦ ، مرجع سابق، ص ص ١٧٢-١٧٣.

(٤٥)محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، *الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي*، ج٤، مرجع سابق، ص ٢١٨.

إليه، وفي غير ذلك من الانتفاعات الشرعية على العادة، في ذلك، وجعله سبيلاً لله"(٤٦).

(٧,٢) الطرق العامة

للطرق والشوارع دور هام، فهي شرايين الاتصال بين عناصر المدينة، وبين المدن المختلفة، فمن خلالها ينتقل الناس بين المكونات العمرانية للمدينة، وعن طريقها يتم التبادل التجاري والاتصال الاجتماعي والثقافي بين الشعوب، وبشكل عام فإنه كلما كانت الطرق ممهدة وميسرة للحركة كلما ساعدت في الحراك الاجتماعي والتجاري، والعكس صحيح.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين ﷺ والأوقاف تلعب دوراً في بناء الطرق وتعبيدها، وإقامة الأميال وتحديدها، وتوفير الخدمات اللازمة للمسافرين بشكل عام والحجاج بشكل خاص. يقول أحد الباحثين: "ولقد كان للخدمات العامة نصيب واسع في نشاطات الوقف وتخصيصاته من قبل المحسنين، فأنشأت ونمت من أموال الوقف شبكة للطرق واسعة ربطت مشرق العالم الإسلامي بمغربه ... كما أنه عبدت ونظفت الطرق داخل المدن من أموال الوقف ... كذلك نشأت العديد من الأوقاف كانت مهمتها الأساسية إصلاح الطرق والقناطر والجسور"(٤٧). كما جاء في رحلة ابن بطوطة ما نصه: "الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها، ...، ومنها أوقاف على تعديل

---

(٤٦)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص١٥٤.

(٤٧)عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ص ١٤٦- ١٤٧.

الطرق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك"[٤٨].

كما اهتم الواقفون بتنظيف الشوارع التي تطل عليها مبانيهم الموقوفة، وهو اتجاه ظهر في المباني الموقوفة الدينية أو الخيرية مثل المساجد الجامعة والمدارس والخانقات والأسبلة والبيمارستانات وغيرها. حيث حرص واقفو هذه المباني ولاسيما الدينية منها على تعيين كناسين يقومون بكنس الشوارع التي تطل عليها المباني ورشها بالماء. ومن الأمثلة على ذلك، ما فعله السلطان برقوق بمدرسته بشارع المعز لدين الله بالقاهرة. كما تضمنت وثيقة وقف منشأة جمال الدين الأستادار بالجمالية بالقاهرة ما يشير إلى أنه "رتب شخصاً من السقاءين بالقرب الكتافية على الآبار جيداً قوياً على العمل كافياً فيه ليكنس التراب حول الخانقاة المذكورة وأزقتها الدائرة عليها من الجهات الأربع، ويرش ذلك بالماء مرتين في الصيف، وإن احتيج إلى ذلك في الشتاء فعله مرة أو مرتين، ويشيل ما يتحصل من الكناسة إلى الأماكن البعيدة، والتنظيف على العادة"، وفي هذا النص دلالة على الاهتمام بكنس الشوارع ورشها بالماء والتركيز على ذلك حسب كل وقت، ففي الصيف تزداد الحاجة إلى كنس الشوارع ورشها بالماء، وهو أمر تنبه إليه الواقف، وكان معمولاً به على جاري العادة كما يشير النص[٤٩].

(٧,٣) الترع الزراعية

أنشئت من أموال الأوقاف الجسور في المناطق التي هي بحاجة إلى ذلك، وكذا تم شق الترع الزراعية في المناطق الزراعية[٥٠]. فقد اهتم سلاطين المماليك بمصر ببناء وإصلاح المرافق المتصلة بالزراعة من جسور وترع ومقاييس وقناطر على النيل، كما

---

(٤٨) المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٤٩) محمد عبد الستار عثمان، *المدينة الإسلامية*، مرجع سابق، ص ص ٢١٠-٢١١.

(٥٠) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٤٩.

حدث عندما جدد السلطان المؤيد شيخ قناطر شبين وصرف عليها أربعة عشر ألف دينار، وقد أرسل من أجل ذلك عدداً من المختصين من كشافي الجسور وأرباب الحرف للإشراف على أعمال الحفر وتجريف التراب لضمان استمرار جريان الماء[٥١].

(٧,٤) السكة الحديدية الحجازية

حدث في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أن فكرت الدولة العثمانية في خدمة الحرمين الشريفين، عن طريق عمل مشروع ضخم بواسطة أموال الأوقاف يساعد المسلمين على أداء فريضة الحج، وييسر لهم مشقات السفر، وكان المشروع هو تمديد خط حديدي من دمشق إلى مكة المكرمة[٥٢]، (الشكل رقم ٧,٢).

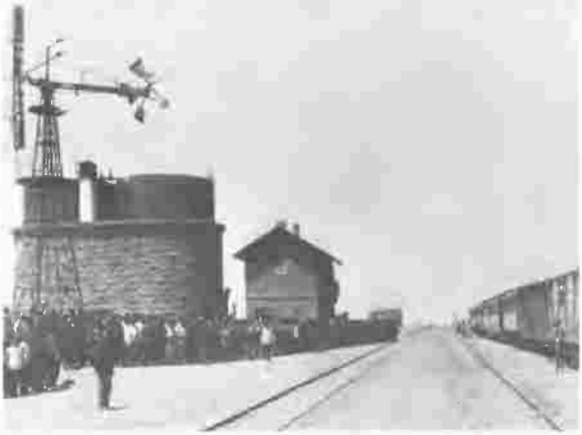

الشكل رقم (٧,٢). افتتاح محطة تبوك، إحدى المحطات الرئيسة لخط سكة حديد الحجاز (تصوير: هالاجيان ١٣٢٢هـ/١٩٠٨م)[٥٣].

---

(٥١)فهمي عبد العليم، *العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"*، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٥٢)عبد الهادي التازي، *توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب*، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٥٣)وليام فيسي، وغرانت جيليان، *المملكة العربية السعودية في عيون أوائل المصورين*، مرجع سابق، ص ٤٠.

حيث كان الحجاج يجتمعون في دمشق انتظاراً لسير موكب الحجيج، الذي كان يستغرق وقتاً قدره أربعين يوماً من دمشق إلى المدينة المنورة، بجانب عشرة أيام أخرى من المدينة إلى مكة المكرمة، ناهيك عما كان يتعرض له الحجاج من مخاطر في الطريق، فكان التفكير في هذا المشروع، واتخاذ القرار بالبدء في أعماله سنة ١٩٠٠م، من الشام إلى الحجاز، وقد خدم حجاج بيت الله الحرام بشكل كبير ويسر لهم السفر، وعاد على الدولة العثمانية والولايات التابعة لها بالفوائد المادية والمعنوية. كما كانت النية تتجه إلى مد فروع من هذا القطار إلى جدة وبعض الولايات العثمانية الأخرى، ولكن خلع السلطان عبد الحميد الثاني صاحب الفكرة ومؤسس هذا العمل الكبير، حال دون إتمام هذا المشروع العظيم[٥٤]، وكان هذا الخط يعرف بقطار الحجاز، ومازالت هناك بعض بقايا محطات هذا القطار باقية إلى الآن، كما في المدينة المنورة.

يقول أحد الباحثين: "بل إن الأراضي المجاورة للسكة الحديد على بعد مائة متر من كل جانب على طول الخط من إستانبول إلى بغداد والمدينة المنورة، قد تم وقفها لخدمة هذا المرفق الحيوي المهم، ولا زالت المستندات التي تثبت ذلك الوقف موجودة في المدينة المنورة، كذلك نشأت العديد من الأوقاف"[٥٥]، بخصوص ذلك.

(٧,٥) سفن الأوقاف

أوقف السلاطين والأمراء العديد من الأوقاف لكي يخصص عائدها لإمداد الحرمين – مكة والمدينة – بحاجتهما من الغلال والمؤن سنوياً، من هنا ظهرت الحاجة

---

(٥٤)محمد كردعلي، *خطط الشام*، ج٥، مرجع سابق، ص١٦٨- ١٧٠- ١٧٩.

(٥٥)عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ص ١٤٦- ١٤٧.

إلى إنشاء الأوقاف للعديد من السفن لنقل الغلال من الموانئ المصرية إلى موانئ الحجاز، وقد تطور هذا الدور للوقف في العصر العثماني بشكل خاص؛ إذ وقفت الأموال من أجل عمارة السفن كوسيلة مهمة للنقل. فقد جاء في وثيقة وقف زوجة السلطان سليمان القانوني التي ترجع إلى سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٣م، بناء "سفينتين عظيمتين" مع "جميع آلاتهما وأدواتهما المعينة المعلومة وتمام لوازمهما ولواحقهما" على أن يتم إنزال هاتين السفينتين في ميناء السويس لكي تقوما بنقل غلال القرى والكفور المصرية الداخلة في نطاق الوقف إلى ميناءي الحجاز الشهيرين آنذاك؛ جدة، وينبع. ولم يتوقف الوقف عند نقل الغلال بل وضع التعليمات اللازمة للحفاظ على سلامة السفينتين ومتانتهما واستمرار دورهما، إذ تنص وثيقة الوقف على ضرورة إجراء الترميمات اللازمة للسفينتين في حالة حدوث أي عطب بهما؛ ولم يهمل الوقف شأن التجديدات الشاملة التي تجري للسفن على فترات زمنية متباعدة؛ إذ نصت الوثيقة على ضرورة "تجديدهما للعتاقة بمرور الزمان". وفي عام ١٥٨٨م أنشأ السلطان مراد وقفاً جديداً لصالح الحرمين وعرف فيما بعد باسم "الدشيشة المرادية"، حيث أمر السلطان مراد المتولي على وقفه في القاهرة بإعداد "سفينة صيّنة لتحمل غلال العمارة العامرة، وجارية في بحر الجود والكرم، وتبار البر والهمم ... وشرط أن يضبطها المتولي في مرساها ويصونها ويحرسها بالتسليم إلى أهلها في مجراها، ويحمل عليها الحبوب والحوائج المقررة الموصوفة من ميناء السويس إلى مرسى ينبع في أوقات سفر البحر المعلومة"، كما تأمر حجة الوقف المتولي على الأوقاف بالقاهرة بضرورة الإشراف على الآلات الخاصة بالسفينة والمراسي والشراع وغيرها من عدد السفينة. وفي بعض الأحيان كان الوقف يأخذ على عاتقه عملية بناء سفينة جديدة لحسابه، مع ما يتطلبه ذلك من إجراءات عديدة أهمها استيراد الأخشاب والمعدات اللازمة لبناء السفن، ومن

الأمثلة على ذلك ما حدث عام ١٧٢٨م، حين اشترى الأمير علي بك دفتر دار مصر لحساب وقف الخاصكية، من أحد التجار الأتراك حدائد وأخشاباً لازمة لصناعة السفن مستوردة من تركيا، حتى يتمكن وقف الخاصكية من بناء سفينة جديدة وإنزالها في ميناء السويس[٥٦].

وقد نشأ عن هذا النوع من الأوقاف علاقات تجارية بين مختلف الدول الإسلامية من ناحية وبلاد الحجاز من ناحية أخرى، وانعكس ذلك على الروابط السياسية والاجتماعية بينها، وتقليل اعتماد بلاد الحجاز على البضائع الخارجية. ومن ثمَّ لم يكن غريباً أن تساهم الأوقاف في مسائل تتعلق بالسياسات الخارجية، حيث مثلت أحد الأدوات التي استعملتها الدولة الإسلامية لإدارة سياستها الخارجية[٥٧].

(٧,٦) الحمامات العامة والمطاهر

تعد الحمامات العامة من أهم المنشآت التي جرت العادة بإنشائها في المدن الإسلامية، وكانت من أهم نوعيات المباني جذباً في الاستثمار العقاري، وذلك لزيادة قبول المجتمع الإسلامي على استخدامها بسبب تعاليم الدين الإسلامي الداعية إلى النظافة والطهارة، وبسبب آخر وهو عدم توفر حمامات بكل الدور وبخاصة دور الطبقات الدنيا في المجتمع[٥٨]. وكانت الحمامات إما تقام للرجال وأخرى للنساء، أو تخصص أيام خاصة بالنساء[٥٩].

---

(٥٦)محمد عفيفي، الأوقاف والملاحة البحرية في البحر الأحمر في العصر العثماني، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٥م، ص ص ٨٧- ٩٢.

(٥٧)طارق عبد الله، *عولمة الصدقة الجارية: نحو أجندة كونية للقطاع الوقفي*، مرجع سابق، ص ص ٣٣-٣٤.

(٥٨)محمد عبد الستار عثمان، *العمارة الفاطمية*، الكتاب الأول، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٥٩)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٧٦.

والحمامات، كمنشآت ساهم الوقف في وجودها، لم تكن هي موقوفة لذاتها بل كانت توقف للصرف على مبانٍ أخرى. فمن الأوقاف التي خصصت للمدرسة النورية الكبرى بدمشق، على سبيل المثال، كما جاء مثبتاً على باب المدرسة "جميع الحمام المستجد بسوق القمح والحمامين المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة ..."[٦٠]. كما كان حمام الذهب من جملة أوقاف الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه، التي أوقفها على مدرسة منازل العز للفقهاء الشافعية بالقاهرة[٦١].

وقد كثرت الحمامات في المدينة الإسلامية بشكل عام؛ ففي مدينة القاهرة، على سبيل المثال، كان هناك ثمانون حماماً في القرن الثالث عشر الميلادي، وفي نهاية القرن الثامن عشر مائة حمام[٦٢]. كما يقول بعض المؤرخين "أنه على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر كان في مدينة قرطبة نحو ثلاثمائة حمام خاص بالنساء، بينا يرى المقري أنه على عهده كان بها سبعمائة من الحمامات، مازالت هياكل أغلبها شاهدة على ما شيده المسلمون من حمامات بمختلف مدن وقرى الأندلس، سواء أكانت خصوصية أو عمومية"[٦٣].

وقد كان لهذه الحمامات دورها الاجتماعي في الحياة الاجتماعية في العصور الإسلامية المزدهرة، إذ كان يخصص للنساء يوم أو أكثر من أيام الأسبوع يلتقين فها للاستجمام والترويح[٦٤]. أما عن الناحية المعمارية في حمامات القاهرة، فقد كانت

---

(٦٠)سعيد إسماعيل علي، *معاهد التعليم الإسلامي*، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٦١)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص٦٨.

(٦٢)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٦٣)أحمد ثاني الدوسري، *الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر*، مرجع سابق، ص ١١١.

(٦٤)فريد شافعي، *العمارة العربية في مصر الإسلامية*، الجزء الأول عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

واجهات الحمامات بدون فتحات، ويغطى الحمام بقبة كروية بها فتحات صغيرة مغطاة بالزجاج الملون غير الشفاف، كما كانت الحوائط من الحجر الجيري وله بالداخل سفل من الرخام، كذلك غطيت الأرضية بالرخام الملون، كما كانت حوائط الحمامات غنية بالزخارف كما في بقايا حمام السلطان المؤيد شيخ. وتتشابه طريقة التسخين في هذه الحمامات بالطريقة التي استعملها الرومان؛ فقد استخدم البخار الناتج من عملية الغليان في التدفئة، إلا أن حمامات القاهرة لم توجد بها تدفئة بالأرضيات بسبب اعتدال درجة الحرارة في الشتاء(٦٥).

وفي سلطنة عمان كانت هناك أوقاف يستخدم ريعها في تعمير الحمامات العامة التي كانت تقام للنساء على الترع، حماية للصحة العامة(٦٦).

ومن المطاهر التي كانت موقوفة في مكة المكرمة: مطهرة الملك الناصر محمد بن قلاوون، عمّرت في سنة ٧٢٨هـ؛ ومطهرة الأمير صرغتمش الناصري، بين العطيفية والبيمارستان بالجانب الشمالي من المسجد الحرام، وتاريخ عمارتها سنة ٧٥٩هـ؛ ومطهرة طنيفا الطويل بقرب باب العمرة؛ ومطهرة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر، بالمسعى قبالة باب عليّ، عمّرت في سنة ٧٧٦هـ؛ ومطهرة خلفها للنسوة، عمّرتها أم سليمان سنة ٧٩٦هـ؛ ومطهرة تنسب للواسطي عند باب الحزورة، وما عرفت واقفتها، ولا متى وقفت. وأعظمهم نفعاً مطهرة المالك الناصر(٦٧).

---

(٦٥)صالح لمعي مصطفى، *التراث المعماري الإسلامي في مصر*، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٦٦)فؤاد عبد الله العمر، *إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية*، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٦٧)تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، تحقيق: مصطفى محمد حسين، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة*، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٧,٧) المقابر

أوقف عمر بن الخطاب ﷺ مقبرة في مدينة القاهرة[٦٨]. كما لم يغفل بعض واقفو المدارس على تزويدها بقطعة أرض تخصص كمدفن لمن يموت من الطلبة خاصة وأن بعضهم كانوا غرباء، حيث أوقفت قطعة من الأرض في مدينة سبتة في المغرب يدفن فيها من هلك من طلاب العلم[٦٩].

هذا بجانب المقابر الخاصة التي أوقفها أصحابها على أنفسهم، ودفنوا فيها، وكانت من الأعمال المعمارية الواضحة في بعض المدن الإسلامية، مثل مدينة القاهرة.

---

(٦٨)محمد عبد الستار عثمان، *المدينة الإسلامية*، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٦٩)فؤاد العمر، "دور مؤسسات الوقف المعاصرة في رعاية قضايا المرأة (إشكاليات وتجارب)"، *مجلة أوقاف*، العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م، ص ١٤٠.